من روائع أدب الغرب

الانسان

L'HOMME

لشاعر الحب والجمال والحرية

الأديب حسين تفكجي

(تتمة ما نشر في العدد الماضي)

— ٧ —

ولكن ذات يوم وقد غرقت في خضم السعادة، وأنصتُّ السماء بكراي الرة، غمرني نور سماوي يبارك ماشتمت، فخضعت دون مقاومة إلى صوت أوحى إلى نشيد الحق الذي تفجر من ثنايا:

المجد لك في الأزمان والخلود
أيها العقل الخالد والارادة العليا
أنت الذي يعرفك الوجود
وتذكر كل صباح أعمالك الحسنى
فنفختك للبدعة انحدرت نحوى
وظهر من كان طيات العدم لعيني !
عرفت صوتك قبل أن أعرف نفسي
فرميت بروحي حتى أبواب الوجود
هأنذا العدم يحييك قبل أن يولد
هأنذا ! ولكن من أنا ؟ ذرة مفكرة
من يستطيع قياس المسافة بيننا ؟
أنا الذي أستوحي منك خلقه السريع
دون علم من نفسي ، أدار حسب هواك
ماذا يجب على نحوك ! أيها الخالق العالي ؟
المجد للانهائي العظيم
الذي أبدع الكل من نفسه
لتسر أيها الخالق العظيم ، لما خلقته يداك
فأنا أتيت لأتم أوامرك العليا
ضع ؛ أطلب ، افعل ، في الأزمان والمكان
وسخرني لأسبح بعظمتك في وعي ومكاني
فذاتي ، دون شكوى ، دون أن تسألك
بسكون ، تسرع لتمجد عظمتك

و كهذه الأجرام الذهبية التي في حقول الفراغ
أتبع بكل هوى ، ظلك الذي ينير لي الطريق
غارقاً في النور أو ضائعاً في الظلام
سأمشي حيث تدلني
مختاراً منك لأهدي العالم
وعاكساً عليهم نوراً غمرتني به
فأرتمي محاطاً بأسرى النجوم
وأقتحم بخطوة جبارة هوة السموات
أو معتزلا وحيداً مهملا من نظراتك
لا تبدع مني أنا المخلوق المجهول
إلا ذرة منسية على شاطئ العدم
أو نقطة من النبار تحملها الرياح
فأنفر بمصيري لأنه صنع يديك
وأذهب إلى كل مكان لأرد إليك واجباً
وبقلب مفعم بحبك أخضع لقانونك
حتى انتهي إلى درك القبر هاتفاً :
« المجد لك »

— ٨ —

يا ابن الأرض البسيط ، مصيري ونهايتي لغز
ما أشبهني بقمر الليالي ، أيها السيد العالي ، ينير الطرقات المظلمة ، حيث تقوده يداك، يعكس من جهة أنواراً خالدة ، ومن جهة أخرى ، يغمر في الظلمات القاتلة
الرجل هو نقطة مشؤومة جمعت بقدرة إلهية نهايتين
كلما تقدمت خف شقائي فأعبد دون أن أراك حكمتك البالغة
المجد لك يا من خلقتني وأبدعت أجل الوجود
وفي هذه الأثناء ، وأزح تحت أثقال سلاسل الجسد ، من المهد إلى اللحد تقودني الخصومة. أسير يقمرني ظلام حالك في طريق صعبة المسالك . غير عارف أين أحمل أثقالي ، وجاهلا أين أحط رحالي. أردد أنشودة الطفولة التي انحدرت كمياه شلال تجتمع لتتعكر.
« المجد لك » فقد اختارني الشقاء حين قذفت على هذه الغبراء وأمسكتني يمينك ، تتقاذفني كأمواج حية
أطعمتني مجبولا بالدموع ، خبز التعاسة وأسقيتني مزن غضبك
هتفت: «المجد لك» ، ولكنك لم تنصت إلى ندائي ، فأرسلت إلى الأرض نظرة حيرى ، وانتظرت في السماء يوم عدلك ولكنه قام أيها السيد العالي ، ليزيد آلامي

« المجد لك » البراءة مجرمة في ناظريك
شيء وحيد بقي لي تحت هذه السموات ، مزجت بنفسك
أيامنا والشجون. حياتها حياتي . وروحها روحي، وكثيرة ما زالت
ناعمة على غصنها ، تأملها ناظري ترفع من حضني قبل أن تينع .
أردت أن تكون الضربة هائلة . ولكنك سددتها بهدوء ،
لتجعل الفؤاد مني حساساً
فكنت أقرأ في أساريرها ، المتمثل فيها جلال الموت مصيري
وأرى في نظراتها ، نبراس الحياة ، الذي بعد عني
فكانت يد الحمام تتقاذف منها الزفرات
ولكنها أبداً ، كانت تردد همسة الهيام
فكنت أهتف لشروق الغزالة ، أيتها الشمس أمهلي يوماً
كمجرم يطلب رحمة ، تحت ظلمات متكاثفة
هبط حياً ، دركات اللحد
ورأى شعلة براقة تتنازعها أيدي الحياة والموت ، فينحني
نحوها ، ليحفظها فيراها تخبو ثم تلفظ الأنفاس
فكنت أود أن أحفظ الروح قبل أن تسير في طريق السموات
كنت أفتش عن كنهه في ناظريها المحدقين بالفضاء
هذه الزفرة ، سيد الوجود ، نشرت شذاها في أحضانها
وبعيداً عن هذا العالم المترع بالضوضاء رحلت قافلة آلامي
فاعف عن يائس جذف بحقك في ساعة غضب
فاني أجرؤ وأطلب الغفران
المجد للسيد العالي
من خلق الماء للخرير ، والنسيم للسريان
والشمس للنور ، والانسان للألم

— ٩ —

لقد كنت حكمتك بحق
فالطبيعة المدينة الشعور تخضع دون إدراك
اكتشفتك وحدي عند ما مستني الحاجة
فأنا أقدم لك نفسي نحية بكل خضوع وإرادة حرة
فوحدي أطعتك بذكاء
وحدي أنعمت نفسي في هذه الإطاعة
وسرت أنفذ في كل مكان ، وتحت كل سماء
قانون طبيعتي وأمر إلهي
فأنا أعبد في مقدراتي ، حكمتك العالية
وأخضع لإرادتك في آلام تجيش في صدري
المجد لك . المجد لك
صيرني إلى العدم ، أو اقذفني إلى العدم
فسوف لا تسمع مني سوى كلمة :
« المجد لك أبداً »

— ١٠ —

وهكذا ارتفع صوتي نحو القبة الزرقاء ، فقدمت المجد إلى السماء ، والسماء تفي بما بقي

— ١١ —

اصمتي يا قيثارتي
وأنت الذي تمسك بيديك قلب البشرية الخفاق « بيرون » تقدم وخذ منها شلالات أنغام منسجمة فقد خلق الله العبقرية لتمجد الحقيقة
صعد نحو السماء نغماتك ، يا مرتل الجحيم
فالسماء نفسها ، ترسل للمعذبين ، هذه النغمات
فيمكن أن تضفي من صوتك شعلة حية ، تنزل حتى قرارة نفسك
ويمكن أن قلبك الحساس ، تحت تنقلات مقدسة ، سيسر من هذه النغمات
فيخترق ظلام الليل ، برق وضاء
فتفيض علينا ، من نور يغمرك

— ١٢ —

أواه ! إذا كانت قيثارتك مجبولة بالدموع ، تزفر تحت أصابعك رنات الألم ، فمن أعماق الظلال الخالدة ، كالملاك الهابط من عليائه ، يطوي الجناح ، ويرتفع نحو نور النهار ، لينصت إلى نغمات مقدسة أصداء هذه القبة الزرقاء ، أصوات أوتار نار مذعنة ينصت إليها الآلهة ، وهي ترتفع من سارافان
تشجع أيها الطفل الهابط من صفوف الآلهة
فانك تحمل على جبهتك الطابع العالي
وكل رجل ينظر إليك ، يرى في عينيك الشعلة الخالدة لنور السموات
ملك الأناشيد الخالدة ، اعرف نفسك بنفسك
واترك « لورد الليل » الشك والتجديف
وابغض كلمات يغشونك بها. فلا مجد حيث لا فضيلة
تعال وخذ مكانك في مجلسك الأول ، بين أطفال أتقياء ، من المجد والنور ، الذي أراد الله تصويرهم بزفرة مختارة
لقد أبدعهم ...
للغناء ، والسماء ، والرضاء

مصطفى صادق الرافعي